

الفصل الرابع

التحدى

obeikandi.com

المعجزة

معجزة، والجمع معجزات، والإعجاز مشتق من العجز، والعجز: الضعف أو عدم القدرة، والإعجاز مصدره أعجز: وهو بمعنى الفوت والسبق.

والمعجزة في اصطلاح العلماء: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة. وعرفها ابن حمدان بأنها: " هي التحدي ابتداءً، بحيث لا يقدر أحد عليها، ولا على مثلها، ولا على ما يقاربها ".

ومن أعظم دلائل النبوة ما يؤتيه الله ﷻ أنبياءه عليهم السلام من معجزات تخرق العادات، وتعطل نواميس الكون وسنته، ويعجز عن فعلها سائر الناس، وذلك تأييداً لهذا الذي أكرمه الله بالنبوة أو الرسالة، وتكريماً له، وشاهداً وبرهاناً على صدق ما جاء به من البيّنات والهدى.

ويقول الإمام الجويني: " لا دليل على صدق النبي غير المعجزة، فإن قيل: هل في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة؟ قلنا: ذلك غير ممكن، فإن ما يُقدّر دليلاً على الصدق لا يخلو، إما أن يكون معتاداً، وإما أن يكون خارقاً للعادة، فإن كان معتاداً يستوى فيه البر والفاجر، فيستحيل كونه دليلاً، وإن كان خارقاً للعادة يجوز تقديره ابتداءً من فعل الله تعالى، فإذا لم يكن بُدٌّ من تعلقه بالدعوى، فهو المعجزة بعينها. " ١٣٨

ولكى تكون المعجزة ملزمة للقوم، فقد ظهرت على يد كل نبي آية من جنس ما برع فيه قومه، ونبغوا فيه واشتهروا به، لأن من يعرف أسرار العلم، ويدرك جزئياته، ثم يرى أن هناك من يستطيع الإتيان بظواهر، خرجت عن قدرة أرباب هذا المجال، يدرك أنه أمام ظاهرة تفوق قوة البشر، ظاهرة لا يستطيع الإتيان بها إلا من كان مؤيداً، ممن يملك الكون

كله، ويسيطر عليه، ولهذا آمن السحرة، حين رأوا عصا موسى تلقف ما صنعوه من سحر، لأنهم عرفوا أنهم أمام عمل، لا يقوى عليه إنسان، يقول الله تعالى، بخيراً رسوله عن هذه الحادثة: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٣٨) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ (٣٩) ﴿لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ أَغْلَبِينَ﴾ (٤٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لِنَأْتِي لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤١) ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٢) ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَأَلْقَوْا جِبَاهَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرِبَدِينَ﴾ (٤٦) ﴿قَالُوا أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٤٨) ﴿

[الشعراء: ٣٨ - ٤٨]

آمن السحرة وصدقوا بأنه رسول من الله، لأنهم أدركوا أن ما قام به ليس سحراً، فهو خارج عن طاقة أى ساحر، ولا يكون ذلك إلا بتأييد من الله، فهو صادق فيما يخبر به عن الله، من أنه رسول، أرسل إلى الناس، ليبين لهم طريق الهدى، ولينذرهم إذا هم ضلوا، أو سلكوا طريق الشيطان.

كذلك كانت معجزة عيسى من جنس ما اشتهر به قومه، وهو صناعة الطب، فقد برعوا فيه، وظنوا أنهم عرفوا كل صغيرة وكبيرة في جسم الإنسان، فجاء عيسى عليه السلام، وأظهر الله على يديه في هذا المجال، ما أفحمهم وأعجزهم عن الإتيان بمثله، رغم أنهم أساتذة فيه، فكانت ولادته من غير أب معجزة لهم، يقول الله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ (٢٠) ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلِنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (٢١) ﴿

[مريم: ٢٠ - ٢١]

وكان كلامه في المهد معجزة، يقول تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٢٧) ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءٍ وَمَا

علاقة

الكنز بالاستثمار

obeikandi.com

حق المجتمع في المال

بين معنيين

يحتل المال مركزاً رئيسياً في الحياة البشرية، سواء كان ذلك على مستوى الفرد أم في حياة المجتمع، إذ يتوقف عليه النشاط الإنساني في جميع مجالات الحياة، وبه تدور عجلة تاريخ الأمم، فمن لا ثروة له، فلا تاريخ له، إذ به تقام الحضارات التي يسجلها تاريخ الأمم والشعوب، وعليه تُشيد المدن التي يفخر أصحابها بتدوينها في صفحات تاريخهم، وفي الوقت نفسه فهو مصدر لمعظم المآسي التي تصيب الإنسان، ومصدر كثير من الشقاء الذي يعاني منه الأفراد والجماعات، سواء كان ذلك في مشقة الحصول عليه، أو في كثرته كثرة تدفع إلى الفساد والطغيان.

فمن يُحرّم منه، ويعاني في سبيل الحصول على قسط منه يقيم أوده، ويحفظ عليه حياته، فهو معذب في حياته، ومن يحصل على قسط وافر منه عن طريق غير مشروع فقد ظلم نفسه، وذلك بإماتة الروح الإنسانية في داخله، إذ هو قد سلب الآخرين حقوقهم عن طريق الغش والخداع، وبأسلوب يتنافى مع ما تقتضيه العدالة، وتحتمه الفضيلة على الإنسان. كذلك من ينفقه في وجوه غير مشروعة، فهو يدمر نفسه، و يعمل على انهيار مجتمعه.

ولهذا ركزت الأديان في كثير من تعاليمها على تنظيم التعامل مع المال، سواء في الحصول عليه، أم في إنفاقه، فجاءت الوصية في الإسلام بأن يلتزم الإنسان بالأمانة في التعامل مع الآخرين، فلا يخدع أحداً، ولا يظلمه، سواء أكان بائعاً، أم مشترياً منه، فإن لم يفعل، فسينتظره عقاب أليم في الآخرة، يقول الله تعالى:

﴿وَبِئْسَ لِلْمُخَلَّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ

وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ ﴿

[المطففين: ١ - ٥]

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ ﴿٢٩﴾ [النساء: ٢٩]

كما توعد من يسيء استخدام المال استخداماً سيئاً بالعذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴿

[التوبة: ٣٤ - ٣٥]

الإسلام دين ودنيا، عبادة وعمل، وتنظيم للحياة للاستمتاع بمحاسنها ووقاية من شرورها وآثامها، وليس المفهوم من هذا التنظيم أن يشرح كل دقائقها، ويبين تفاصيلها وأجزاءها، وإلا كان خاصاً بزمان معين، ولجتمعت بذاته، لأن حياة المجتمعات تتفق في المبادئ العامة، وتختلف في التفاصيل والفروع، كل حسب بيئته، وطبقاً لمقتضيات عصره، فالعصور مختلفة والبيئات متفاوتة، وطبيعة عناصر الحياة متطورة ومتجددة، فلو حدد الإسلام الجزئيات وبين الفروع لكان ذلك منافياً لفلسفة الحياة، ومناقضاً لمتطلباتها المختلفة، وآفاقها المتنوعة، ولصار ذلك حجراً على العقول من أن تمارس قدرتها في شرح المبادئ العامة التي صاغها الإسلام في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة. ومن أمثلة ذلك ما جاء في آيتي التوبة ٣٤، ٣٥: ذلك أن المفسرين القدامى فسروهما على وجهين:

الأول: أن المقصود بالكثر هو عدم زكاة المال، مستدلين على ذلك بالنصوص التالية:

قوله ﷺ: " ما أَدَّى زكاته فليس بكثر، وإن كان باطناً، وما بلغ أن يُزَكَّى ولم يُزَكَّ، فهو كثر، وإن كان ظاهراً. ١٣٩ "

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " ما أدت زكاته فليس بكثر. " وقال ابن عمر: " كل ما أدت زكاته فليس بكثر، وإن كان تحت سبع أرضين، وكل ما لم تؤد زكاته فهو كثر، وإن كان فوق الأرض. " وقال جابر: " إذا أخرجت الصدقة من مالك، فقد أذهبت عنه شره، وليس بكثر. "

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُفْقُوْنَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۗ ﴾ [التوبة: ٣٤]، يريد الذين لا يخرجون زكاة أموالهم.

خاطب الإسلام جميع الناس على اختلاف قدراتهم العقلية، وتنوع أفكارهم الاجتماعية، فكان صالحاً للخلق أجمعين على هذه الأرض، مهما اختلفت ثقافتهم، وتنوعت نظم حياتهم، وتباينت عاداتهم وتقاليدهم، لأنه من العليم القدير، العليم بقدرات خلقه الفكرية، القدير على صياغة الوحي بأسلوب يفهمه كل إنسان على وجه البسيطة، فجاءت آيات القرآن الكريم على نحو صالح لكل الثقافات والبيئات، فيفهمها ويفسرهما، ويستنتج منها أحكاماً تلائم عصره، وتتوافق مع متطلبات بيئته، وذلك هو قمة الإعجاز، الذي انفرد به القرآن الكريم، فقد فسر علماء العصر الإسلامي الأول آيتي التوبة ٣٤، ٣٥ على نحو يلائم عصرهم، فذهبوا إلى أن المقصود بالكثر، هو المال الذي لم تُؤدَّ

زكاته، أو المال الزائد عن حاجة مالكة، لقول العلماء السابقين: إن الله خلق الأموال ليتوسل بها إلى دفع الحاجات، فإذا حصل للإنسان قدر ما يدفع حاجته، ثم جمع الأموال الزائدة عليه، فهو لا ينتفع بها لكونها زائدة على قدر حاجته، ومنعها من الغير الذي يمكنه أن يدفع حاجته بها، فكان هذا الإنسان بهذا المنع مانعاً من ظهور حكمته، ومانعاً من وصول إحسانه إلى عبده.

ومما لاشك فيه أن هذا القول مردود بعموم قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فإن ذلك يدل على أن ما اكتسبه الإنسان فهو حقه، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَأْذِنُكُمْ أَمْوَالِكُمْ﴾ [محمد: ٣٦]، وقوله ﷺ: " كل امرئ أحق بكسبه "، بل إنه منع من أراد الوصية بماله كله من ذلك، وأقره على الوصية بثلث ماله قائلاً له: " والثلث كثير !!! " ١٤٠

أما علماء العصر الحديث فلهم رأى آخر، ألا وهو: أن الضمير في "ينفقونها" عائد على جملة الذهب والفضة في قوله تعالى: " والذين يكتزون الذهب والفضة " التي يملكها الإنسان، إذ لا يجوز عود الضمير على بعض الذهب والفضة، وهو الجزء المستحق للفقراء كـ " زكاة "، ولم يرد في الكتاب والسنة ما يوجب على المسلم أن ينفق كل ماله، بل الذي ورد عكس ذلك، فقد روى عن سعد بن مالك عن أبيه قال: عادني النبي ﷺ عام حجة من مرض - أشفيت منه - أشرفت منه على الموت، فقلت: يا رسول الله ! بلغ بي الوجع ما ترى، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: " لا ! " قلت: فأتصدق بشطره؟ قال: " لا ! " قال: " الثلث يأسعد، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عائلة يتكفون الناس ... " ١٤١

١٤٠) صحيح البخارى: جـ ٣ صـ ١٠٠٦ رقم ٢٥٩١

١٤١) صحيح البخارى: جـ ٣ صـ ٣٧٢

كذلك لا يتناسب العقاب الذى ورد فى الآيـة: "...يوم يحمى عليها فى نار جهنم.... الخ" مع الإثم الذى يرتكبه من لم يؤد زكاة ماله، فلم يرد ذلك صريحاً فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ولا فيما استنتجه علماء الفقه الإسلامى منهُما من أحكام، وعليه فالعقاب الوارد فى الآيـة لا بد أن يكون عقاباً على إثم يفوق إثم من لم يؤد زكاة ماله، بل لا بد أن يكون إثماً عظيماً يتعدى أثره أسرة، أو مجموعة صغيرة من الناس يحتاجون إلى ما يسدون به رمقهم، إثم يترتب عليه انهيار المجتمع، وموت الحياة كـلية. هذا هو الإثم الذى يستحق من يرتكبه هذا العقاب الأليم، وهو ما يفهم من الآيـة، عندما فسر العلماء فى العصر الحديث كلمة "ينفقونها" بـ "يستثمرونها"، إذ حجب المال عن الاستثمار بكثرته، أى بوضعه فى الخزائن دون تركه يعمل فى الحركة الاقتصادية، يشل حركة المجتمع، ويوقف قلبه النابض؛ إذ لو تصورنا - على سبيل المثال - أن كل من يملك مالاً وضعه فى خزائنه، لمات الناس جوعاً، بمن فيهم من يملك المال، لأنه - وهم أيضاً - لن يجدوا ما يأكلونه، إذ لا تكون هناك تجارة، ولا زراعة، ولا صناعة، ولا أى عمل من أى نوع كان، لأن حياة هذا كله هو المال، ولما كان هذا هو وضع المال وأثره فى حياة الأمة، كان جزاء من يمنعه من تأدية هذه الوظيفة: أن تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، لأن ذنبهم لم يقتصر على حرمان واحد أو اثنين مما يحتاجه فى حياته، بل هو حرمان أمة بأسرها، بل هو سبب فى موتها وهلاكها كـلية.

وعليه فيجب على المسلم وجوباً عينياً أن يستثمر ماله فى التنمية، أو يوكل غيره - كالبنوك مثلاً - إن كان لا يقدر على ذلك، فلا يمنع الأمة من الانتفاع بهذا المال، وهذا هو المبدأ العام فى الفقه الإسلامى: "المال ملكيته خاصة، ومنفعته عامة"، أى أنه ملك خاص لصاحبه، ولكن الأمة كلها تنتفع به؛

فالعامل - أياً كان عمله - ينتفع به، لأنه هياً له عملاً يعيش منه، والزارع ينتفع به، لأنه أتاح له الأرض التي يفلحها، والتاجر يجد ما يسد به حاجته وما يلزم أسرته من التجارة في المنتج: زراعة وصناعة وغيرها من مناحي الإنتاج في المجتمع، بل إن التقدم العلمي الذي تعود نتائجه بالرخاء وتيسير مناحي الحياة كلها، يقوم على استثمار المال في البحوث العلمية التي تعمل على اكتشاف ما في ظواهر الكون من عناصر لتسهيل حركة الحياة.

ولكى ينتفع المسلمون بمالهم يجب استثماره في الأقطار الإسلامية، فلا يجوز وضعه في بنوك أجنبية، أو استثماره في بلد غير إسلامي إلا إذا كان في ذلك جانب من جوانب منفعة تعود على المسلمين، لأن الاستثمار في بلاد غير إسلامية هو حرمان المسلمين من حقهم في الانتفاع بمواردهم الاقتصادية، فبلاد المسلمين في حاجة ملحة إلى كل درهم للتنمية الاقتصادية؛ إذ نسبة البطالة في العالم الإسلامي مرتفعة جداً، ومستوى المعيشة منخفض جداً، ووسيلة علاج ذلك هو المزيد من الاستثمارات، فإذا استثمر أصحاب الأموال أموالهم في بلاد غير إسلامية، استفحلت مشكلة البطالة في الأقطار الإسلامية، وتدهورت مستويات المعيشة، مما يؤدي إلى ضعف المسلمين وانحيار حياتهم، فلا يستطيعون رد غاز، ولا يقوون على حماية بلادهم من الطامعين، بل إنهم لن يكون في وسعهم حماية عقيدتهم، وعند ذلك يكون العقاب الذي تحدثت عنه الآية:

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٢٥﴾﴾

[التوبة: ٢٥] موازياً لما ارتكبه أصحاب الأموال من الإثم في حق شعوبهم الإسلامية.

فاستخدام المال في التنمية يرفع مستوى المعيشة، وكثرة الاستثمارات في

المجتمع عامل مهم في ازدهار الحياة؛ إذ يحصل الإنسان في ظل الازدهار الاقتصادي على ما يحتاج إليه في معيشته، بل قد يصل إلى وفرة في الغذاء، وسهولة في الحصول على مسكن ملائم يرتاح فيه مع أسرته، وكساء يضيء عليه السعادة، فترتاح نفسه، ويطمئن قلبه، وذلك هو الأمن والاطمئنان الذي تنشده الأفراد، وتسعى إليه الأمم ليستقر النظام ويسود الأمن في ربوع المجتمع^{١٤٢}.

obeikandi.com

الإسهام فى الحضارة

واجب دينى

obeikandi.com

الحضارة

هى نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى، وهى تتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون. وهى تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمنَ الإنسان من الخوف، تحررت فى نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى فى طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها.

وترتكز الحضارة على البحث العلمى والفن التشكيلى بالدرجة الأولى، فالجانب العلمى يتمثل فى الابتكارات التكنولوجية، وعلم الاجتماع، أما الجانب التشكيلى فهو يتمثل فى الفنون المعمارية، والمنحوتات، وبعض الفنون التى تسهم فى الرقى. فلو ركزنا بحثنا على أكبر الحضارات فى العالم، مثل: الحضارة الرومانية سنجد أنها كانت تمتلك علماء وفنانين عظماء، فالفن والعلم هما عنصران متكاملان يقودان أى حضارة.

وفى اللغة العربية: هى كلمة مشتقة من الفعل: " حَضَرَ "، ويقال: الحضارة هى تشييد القرى والأرياف والمنازل المسكونة، فهى خلاف البدو والبدوة والبادية، وتستخدم اللفظة فى الدلالة على المجتمع المعقد، الذى يعيش أكثر أفراده فى المدن، ويمارسون الزراعة، على خلاف المجتمعات البدوية ذات البنية القبلية، التى تنتقل بطبيعتها وتعيش بأساليب لا تربطها ببقعة جغرافية محددة، كالصيد مثلاً. ويعتبر المجتمع الصناعى شكلاً من أشكال الحضارة.

تعتبر لفظه حضارة مثيرة للجدل وقابلة للتأويل، واستخدامها يستحضر قيماً (سلبية وإيجابية)، كالتفوق والإنسانية، والرفعة، وفى الواقع رأى - ويرى -

العديد من أفراد الحضارات المختلفة أنفسهم أنهم متفوقون ومتميزون عن أفراد الحضارات الأخرى، ويعتبرون أفراد الحضارات الأخرى همجيين ودونيين.

ويذهب البعض إلى اعتبار الحضارة أسلوب معيشة، يعتاد عليه الفرد من تفاصيل صغيرة إلى تفاصيل أكبر، يعيشها في مجتمعه، ولا يقصد من هذا استخدامه إلى أحدث وسائل المعيشة، بل عامله هو كإنسان مع الأشياء المادية والمعنوية التي تدور حوله وشعوره الإنساني تجاهها.

ومن الممكن تعريف الحضارة على أنها الفنون، والتقاليد، والميراث الثقافي والتاريخي، ومقدار التقدم العلمي والتقني، الذي يتمتع به شعب معين في حقبة من التاريخ. إن الحضارة بمفهوم شامل تعني كل ما يميز أمة عن أمة، من حيث: العادات، والتقاليد، وأسلوب المعيشة والملابس، والتمسك بالقيم الأخلاقية، ومقدرة الإنسان في كل حضارة على الإبداع في الفنون والآداب والعلوم.^{١٤٣}

الحضارة والمدنية:

الحضارة هي الجهد الذي يُقَدَّم لخدمة الإنسان في كل نواحي حياته، أو هي التقدم في المدنية والثقافة معاً فالثقافة هي التقدم في الأفكار النظرية، مثل: القانون، والسياسة، والاجتماع، والأخلاق وغيرها، وبالتالي يستطيع الإنسان أن يفكر تفكيراً سليماً.

أما المدنية فهي التقدم والرقى في العلوم التي تقوم على التجربة والملاحظة، مثل: الطب، والهندسة، والزراعة وغيرها.. وقد سميت بالمدنية لأنها ترتبط بالمدنية، وتحقق استقرار الناس فيها عن طريق امتلاك وسائل هذا الاستقرار، فالمدنية تهدف إلى سيطرة الإنسان على الكون من حوله، وإخضاع ظروف

١٤٣ (ويكيديا، الموسوعة الحرة، مادة: حضارة.

البيئة للإنسان.

ولابد للإنسان من الثقافة والمدنية معاً، لكي يستقيم فكر الأفراد وسلوكياتهم، وتحسن حياتهم، لذلك فإن الدولة التي تهتم بالتقدم المادى على حساب التقدم فى مجال القيم والأخلاق، فهى دولة مدنية، وليست متحضرة....^{١٤٤}

شاع فى المجتمعات الغربية أن المسلمين متخلفون، وأنهم أعداء الحضارة، فهم يتعاملون مع الغرب بقصد هدم حضارتهم. وليس هذا قاصراً على فئة معينة، بل انتشرت هذه الفكرة فى كل الطبقات، سواء كانت مثقفة أم غير مثقفة، ومما يزيد هذه الفكرة رسوخاً فى النفوس وسائل الإعلام المختلفة التى لا تترك مناسبة إلا وتتناول فيها وضع المسلمين فى أدنى درجة من درجات سلم الحضارة، فهم يميلون - كما تدعى هذه الوسائل - إلى تدمير كل ما أنتجته الحضارة من تقدم ورقى. وقد أثر هذا على عامة الناس - وخاصتهم أيضاً - فى تلك البلاد، فتعمقت فى نفوسهم تلك الفكرة، إلى درجة أنهم يتصورون أن المسلمين يعيشون فى ظلمات الجهالة، ولا يعرفون من أسباب الحضارة إلا النذر اليسير؛ فقد حدث فى ستينات القرن العشرين، عندما كنت أسكن فى المدينة الجامعية فى برلين، أن وجه إلى جار لى فى السكن - وهو ألماني كان طالباً فى كلية الحقوق - هذا السؤال: هل تسير الجمال فى شوارع القاهرة؟ فأجبت بسخرية: نعم، ولها محطات مثل محطات الأوتوبيس عندكم، يتزل المسافر من على ظهرها ويركب آخر! فقال لى: لماذا تمزأ بى بهذا الأسلوب؟ فقلت له: إذا كنت طالباً فى المرحلة الجامعية، فأنت مثقف! والمفروض أنك على دراية بما يجرى فى

العالم... ثم تعتقد أن مواصلاتنا في العاصمة هي الجمال ! فماذا نتظر من العامة؟ فقال لي: أتم السبب في هذا التصور عند مواطنينا، فقلت: كيف؟ قال: لأن كل - أو معظم - إصداراتكم الدعائية لترويج السياحة مرسوم عليها جمل، فماذا نتظر من إنسان لم ير بلادكم ويقرأ هذه الإصدارات؟

أصبحت كلمة " تخلف " من أكثر الكلمات المستعملة في أحاديث الناس في هذا العصر، سواء كانت تلك الأحاديث مجرد " دردشة " في المجالس والمنتديات، أو محاضرات علمية وندوات ثقافية، يتصدر للحديث فيها جهابذة العلماء وكبار المتخصصين في شتى مجالات المعرفة.

بل يكاد يحرص كل متحدث - حتى ولو كان أمياً - على ترديدها في أحاديثه مع الآخرين، وإبرازها بشكل واضح فيما يريد توصيله لهم من رسائل، وما ذاك إلا لما ترسب في أذهان الناس من الشعور بالنقص والدونية، لو شعر لحظة بأن هذه الكلمة تنطبق عليه، أو أنه من أفراد شعب تقاعس وتخلف عن ركب الحضارة التي سبقتة فيه دول وشعوب متعددة.

ولم تحظ هذه الكلمة بهذا الاهتمام الشديد على مستوى الأفراد فحسب، بل أصبحت مدار السياسات الدولية، ومركز الخطط التنموية على جميع مستوياتها وتشعب مجالاتها، إذ نرى المخططيين في مجال الصناعة يضعون في اعتبارهم - عندما يرسمون الخطط المستقبلية - درجة تخلفهم في القدرات والموارد البشرية والمادية عن سبقهم، ويبحثون عن أحسن السبل وأسرعها للحاق بمن سبقهم - أي للتخلص من التخلف عن غيرهم - أو لتقليل الفجوة بينهم وبين من تفوقوا عليهم في هذا المجال.

ولا يقتصر الأمر على المهتمين بالمجال الصناعي فقط، بل يشمل جميع المجالات، بما فيها المجال الثقافي، بل إن الثقافة تعتبر نقطة الانطلاق إلى الأمام،

فعلية تدور كينونة الأمة - وكذا الأفراد - وبلورة وضعها في مجال: التخلف والتقدم.

" فالتخلف ظاهرة تصيب النمو في بعض المجتمعات، وتعني: ببطء الحركة في تحقيق النمو الذاتى لها (وليس في اللحاق بغيرها)، وهى تنبع أصلاً من تأثيرات تفاعلية خارجية (وليست متأصلة في كيان المجتمع بيولوجياً أو وراثياً) تتجسد في سوء استغلال الطاقات المادية الكائنة، وضعف التركيب الاجتماعى، والإطار الثقافى القائمين، وعدم كفاية النظام السياسى في تحقيق استقرار المجتمع"^{١٤٥}

وقد أطلق على هذه المجتمعات اصطلاح الدول المتأخرة (Backward Countries)، ويقصد به تلك الدول التى لم تصل إلى مستوى مرتفع من التقدم الفنى والاقتصادى، أو هى التى تسودها المستويات المنخفضة من التقدم الاقتصادى والتكنولوجى، بحيث يترتب على ذلك شيوع الفقر بين سكانها. وعندما ظهر أن الاصطلاح لا يوضح الأبعاد الحقيقية لمشكلة التخلف، استبدل باصطلاح جديد هو الدول المتخلفة (Underdeveloped Contries)، وهو تعريف ساد الكتابات الاقتصادية مدة طويلة، وعرفت الدول المتخلفة بأنها الدول التى تنخفض فيها مستويات المعيشة عن تلك المستويات السائدة في أوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلاندا.... إلخ. غير أن البعض اعترض على هذا التعريف على أساس أنه تعريف ينقصه الشمول، ومن ثم نادى بأن يطلق على هذه المجموعة من الدول " الدول المتخلفة المتأخرة " حتى يكون التعريف جامعاً مانعاً، ذلك أن مفهوم التخلف إنما ينصرف - في نظر هؤلاء - إلى الموارد

المادية، وعدم استغلالها استغلالاً كاملاً. أما التأخر فينصرف إلى قدرات القوى البشرية السائدة في هذه المجتمعات، وعدم استطاعتها القيام باستغلال الموارد المادية استغلالاً منتجاً، ومن ثم لا بد من ذكر هاتين الصفتين معاً.

ولم يسلم هذا الاصطلاح من الاعتراض على أساس أنه لا يفرق بين الركود والنمو، أضف إلى ذلك أنه يعطى الانطباع العام بسيادة الركود في هذه المجتمعات، وهو أمر لا يتفق وحقيقة واقع هذه المجتمعات، ولذا حاول بعض الكتاب إحلال اصطلاح الدول المتخلفة باصطلاح الدول النامية، وساعد ازدياد أعضاء الدول المستقلة حديثاً في المحافل الدولية (كالأمم المتحدة) على شيوع هذا الاصطلاح، بحيث أصبح أكثر قبولاً لأسماع أبناء تلك الدول عن اصطلاح الدول المتخلفة، أو المتأخرة. ولما كان النمو حقيقة تشترك فيه كل من الدول المتخلفة والمتقدمة، حاول البعض استخدام اصطلاح: " العالم الثالث " .^{١٤٦}

تُصنّف البلاد الإسلامية بأنها دول نامية، أو متخلفة في أدبيات كثير من كتاب الغرب، بل إنهم يرجعون ذلك إلى الإسلام، ويحاولون إفهام شعوبهم بأن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين لأن الإسلام - كما يزعمون - دين الصحراء والبدواة، ليس فيه ما يدعو أتباعه إلى الإسهام في بناء الحضارة.

ومن هنا فقد كثر الحديث في الآونة الأخيرة - على جميع المستويات الثقافية في العالم الإسلامي - عن التخلف ومظاهره، فظهرت الكتب والمقالات حول هذا الموضوع، بعضها يحلل هذه الظاهرة في المجتمعات الإسلامية، باحثاً عن أسبابها وملابساتها، شارحاً صورها ونماذجها، متمسكاً منافذ التخلص منها برسم مناهج خاصة، وتوضيح أساليب معينة ينبغي على الفرد ممارستها، ووضع

استراتيجية محددة للمؤسسات الرسمية والشعبية تلتزم بها إذا كانت جادة في دعوتها إلى الأخذ بأسباب التقدم لبناء مستقبل يجد فيه المسلم مكاناً بين الشعوب، التي تأخذ بزمام الحضارة، وتتحكم في مسار المستقبل، فتوجهه إلى ما يعود على أفرادها بالرخاء الاقتصادي، مع الحفاظ - بقدر الإمكان - على سلامة الفرد نفسياً واجتماعياً.

واهتم البعض الآخر بالجانب الاجتماعي اهتماماً زائداً، فأرجع أسباب التخلف إلى الجانب الروحي في المجتمع، حيث فرط الفرد في واجباته الدينية، وتهاون في الالتزامات التي فرضها الله عليه إزاء نفسه وأسرته ومجتمعه، فنتج عن ذلك إهمال في العمل، وتفريط في حقوق الغير، بل اعتداء عليها، مما ساعد على ظهور الكسل، وعدم الالتزام، والغش، والخداع، والنفاق، والمداينة... حتى فيما يتعلق بصور العبادات، إذ أصبحت رياءً وتظاهراً، بل وسيلة إلى الكسب غير المشروع، وأسلوباً من أساليب التظاهر بالتقوى والصلاح أمام من بيده المنح والمنع، وفي حضرة من يملك المال والعطايا، وتحت إمرته صكوك الحياة، ومراسيم المنصب والسلطان، ولعل أبلغ تعبير عن السلبية التي سادت المجتمعات الإسلامية هو القول السائد: "دعوه يئن"... فقد أصبح مفهوم هذا التعبير "موقفاً كاملاً إزاء العلل والأسقام، فالصوفية كانت طيلة قرون الانحطاط تضمن لتابعيها حياة روحية عالية، وعلاقات أخوية صادقة، بينما أمواج الظلم والظلمات تتلاطم وتزجر، ولا أحد يبدى حراكاً، ويبقى المجتمع يئن ولا مغيث.

هذا هو المنهاج: تربية روحية عالية والمجتمع منبوذ يئن، ثم انتقل هذا المنهاج إلى الإسلاميين المعاصرين، إنهم أدركوا وجود مرض، ولكن الشفاء عز. وحين كان يوجه إليهم سؤال: ماذا قدمتم للمريض الكبير؟ يأتي الجواب جازماً: "

دعوه يثن " فإنه جاهلي، سوف نربي أنفسنا، ثم نرى بعد ذلك. ويتواصل الأئين... " دعوه يثن " منهاج وعقوية... فلا دراسات ولا تحليلات، ولا إمكان لتطور الأوضاع بناءً على برامج مرحلية، وإنما هو الإعراض والرفض. " دعوه يثن " إنه موبوء فلا تقربوه.

ولم يتعد الأمر رفع شعارات عامة مثل شعار: " عمّ الفساد " أو " الإسلام هو الحل "...

والشعارات كالمسكنات تصلح لفترة... ثم تتوقف عن التأثير ويكتشف العليل أن مرضه تفاقم. ^{١٤٧}

واحتل الهجوم على المؤسسات التنفيذية مساحة كبيرة لدى أصحاب هذه الدعوة، إذ صب كتابها جام غضبهم على الحكام والأمراء، ولم يسلم منهم أحد يتولى أمراً من أمور المجتمع... حتى المعلمون في المدارس والجامعات، والوعاظ ورجال الدين الذين لم ينهجوا نهجهم في المعارضة... وتوجيه النقد إلى كل من يعترض طريقهم، أو يخيل إليهم أن في الهجوم عليه تقرباً إلى الله، ووسيلة إلى بلوغ أهدافهم.

أما الفريق الثالث من المتناولين لهذه الظاهرة - ظاهرة التخلف - بالشرح والتحليل، فهم أولئك الذين يرفعون راية التمرد على الدين، إذ يرجعون أسباب تخلف العالم الإسلامي إلى التمسك بالدين، فهم يرون أن السلفية تشيع في المجتمع المتخلف، فأفراده يرضخون للتقاليد والأعراف، ويحتمون بالماضي وأمجاده. وتتفاوت درجة تمسكهم بالقديم بمقدار درجة القهر التي تمارس على إنسان العالم المتخلف، وبمقدار إحساسه بالعجز والضعف والغلبة على أمره إزاء

غوائل الطبيعة، وعت المتسلطين، وهى لذلك تشكل أولوية دفاعية إزاء تحديات لا قبل له بها، تشل مبادراته فى الحاضر وتسد أمامه آفاق الخلاص المستقبلى.

وبعضهم يخفف من لهجته، فىرى أن سبب تخلف المسلمين هو تمسكهم بالتراث - وليس بالمحافظة على الدين -، ورفضهم أساليب الحضارة الحديثة؛ إذ يرفض المتشددون التعامل مع كل مظهر حضارى، ويضعون القيود على سلوك الناس مما يشل حركتهم، ويعوق تقدمهم، ويعددهم عن الأخذ بأسباب التقدم والرقى، ظناً منهم أن ذلك يحميهم مما يسمونه غزواً يهدد كيانهم، ويمحو هويتهم. فالتمسك بالتراث يحصنهم ضد غزو متسلط خارجى، هذا التسلط يشكل تهديداً كيانياً لمن يغزوهم فى هويتهم القومية... وتراثهم وانتماءاتهم ونظرتهم إلى الوجود. إنه يحمل خطر الاندثار وفقدان الوعى الذاتى. فإذا عزت المقاومة المسلحة، وانتفت إمكانية المجابهة المباشرة، لا يبقى أمام الشعب المقهور سوى الاحتماء بالتراث، والتمسك بالتقاليد ضد الغزو الفكرى والنفسى، ضد الغزو الحضارى. ويشدد التمسك بهذه التقاليد بمقدار وطأة الاستعمار الحضارى، ويستمر طالما عزت المقاومة المسلحة، وطالت فترة الاستعداد للتحرير. وتخف حدة التمسك بالتقاليد ويزداد الانفتاح على عوامل التغيير والتحديث بمقدار الاطمئنان إلى القدرة الذاتية، وبمقدار الشعور بالحماية وانخفاض حدة التهديد الخارجى.^{١٤٨}

ولما كان التمسك بالتراث - فى نظر هؤلاء - ليس إلا وسيلة لاحتواء الضعيف الذى يشعر بالتهديد، ويحس بأن كيانه معرض للذوبان فى خضم التيارات المتجددة، ولا ينتج عنه سوى التفوق على الذات مما يزيد التخلف

والانحطاط، فهم ينادون برفض كل ما يمت إلى الماضي بصلة، بل يحاربون كل من يتمسك بالتراث، ويسدون الطريق في وجهه، ظناً منهم أنه سوف يعوق حركة التقدم لو تقلد منصباً يمكنه من ذلك.^{١٤٩}

فهل يعتبر التمسك بالإسلام سبباً في التخلف؟

وهل يؤثر اعتمادنا على التراث في عرقلة سيرنا على طريق التقدم والازدهار؟

هذا غير صحيح جملة وتفصيلاً؛ فقد حث الإسلام المسلمين على الإسهام في الحضارة، وذلك في أول آية نزلت من القرآن الكريم، إن الآيات الأولى من الوحي الذي نزل على محمد ﷺ تشير إلى سبب هام من أسباب ازدهار الحضارة، وهو ماسوف نبينه في السطور التالية.

يقول الله تعالى:

﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ [العلق: ١ - ٥]

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حجب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء^{١٥٠} فيتحنث فيه - وهو التجدد -

(١٤٩) راجع كتابنا: التخلف في العالم الإسلامي بين الداء والدواء.

(١٥٠) غار حراء: كهف صغير بأعلى حراء، وحراء: جبل صغير في الشمال الشرقي من مكة، يبعد عنها بما يقرب من ثلاثة أميال، وهذا ليس بذي زرع ولا غرس، بل هو مملوء بالصخور لا عمران فيه ولا يأوى الناس إليه، ولا يستأنسون به، يمشى الماشى في طريق متعثر، لا يصل إليه إلا في مقدار من الزمن، قد يسير في طريق غير معبد إلى نحو الساعتين. فإذا وصل إلى سفح الجبل بعد هذه المدة لا يرتفع إلى الغار إلا فيما يقرب من ساعة، وإذا ارتفع إليه وحده موحشاً يحس فيه الداخل برهبة - وهو أعلى الجبل، فيزداد المقبل عليه عزلة عن الناس، بل عن الأرض وما فيها، ويكون الغار من وراء صخرتين كبيرتين تعترضان داخله، قد ضيق الله ما-

الليالي ذوات العدد، قبل أن يترع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ! قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ! قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ! فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضی الله عنها فقال: زمّلوني زمّلوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا، والله لا يجزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ! اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أومخرجني هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ،

=بينهما، وإذا تجاوزهما، ودخل الغار أحس بأنه قد صار معزولاً عن العالم عزلة كاملة. وإن اختيار محمد بن عبد الله ذلك المكان، لأن فيه العزلة الكاملة عن الناس، والوحشة من كل شيء، إلا الأنس بالله وحده، وكان اختياره بإلهام من الله تعالى ليكون مقدمة جهاده، ويعيش فيه حياتين: أولاهما: رهبة، والثانية: صعوبة، وإن كانت لهاتين سعيدة.

ثم لم يلبث ورقة أن توفي، وفتى الوحي " ١٥١ .

لماذا طلب جبريل عليه السلام من محمد صلى الله عليه وسلم أن يقرأ، وهو يعلم أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب؟

أليس طلب القراءة من أمى يعتبر جهلاً بالمطلوب منه، أو عبثاً من الطالب؟

حاشا وكلما أن يكون جبريل جاهلاً أو عبثاً !!

لماذا كرر جبريل عليه السلام الأمر بالقراءة ثلاث مرات مع ضغطه على محمد صلى الله عليه وسلم عقب كل مرة ضغطاً عنيفاً لدرجة أنه أجهده؟

ولماذا كرر الوحي في أول آيات نزلت من القرآن الكريم فعل " اقرأ " مرتين لفظاً: في قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ فِي ... اقْرَأْ وَرَبُّكَ ﴾، ومرة بالمعنى في قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾؛ لأن ما يكتبه القلم فهو مقروء؟

كان ذلك كذلك لتعليم المسلمين أهمية القراءة، كي يلتزموا بذلك وينشرونها في المجتمع الإسلامي، حتى يشيدوا حضارة تأخذ بأيديهم إلى الرقى والازدهار في حياتهم في الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة. فالحضارات لا تقوم إلا بواسطة تسجيل الإبداعات، وكتابة الاكتشافات في جميع المجالات، سواء كانت على مستوى العلوم التطبيقية، أو في آفاق الفنون والأدب، لأن البناء الحضارى يقوم على التراكم الثقافى، والتتابع الإبداعى، إذ يعتمد اللاحق على السابق ويبنى عليه ويسمه لمن بعده ليواصل ما بيده في المجالات المختلفة.... وهكذا حتى يواصل الصرح الحضارى، ارتفاعه دون توقف. فلم - ولن - يرتفع بناء حضارى على السرد الشفهى، فكل الحضارات التى قامت على

امتداد التاريخ البشرى كان التسجيل - سواء كان بالرسم أو النحت أو بالكتابة أو بأى وسيلة أخرى من وسائل حفظ الإبداعات الإنسانية - هو العمود الفقرى الذى يستند إليه كل ما يبدهه الإنسان وتنجزه الشعوب.

وهذا من أساليب الإعجاز فى القرآن الكريم، إذ أراد الله أن يعلم المسلمين فى هذه الآيات الأولى " فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قُيِّدَت الحِكَم، ولا ضُبِّطَت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كُتِبُ اللهُ المترلة إلا بالكتابة؛ ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولولم يكن على دقيق حكمة الله، ولطيف تدبيره من دليل إلا أمر القلم والخط، لكفى به، ولبعضهم فى صفة القلم:

وَرَوَّاقِمِ رُقُشٍ كَمِثْلِ أَرَاقِمِ * قُطْفِ الْخُطَا أَقْصَى الْمُدَى
سُودِ الْقَوَائِمِ مَا يَجِدُ مَسِيرُهَا * إِلَّا إِذَا لَعِبَتْ بِهَا بِيضُ الْمُدَى

١٥٢

وقرأ ابن الزبير: علم الخط بالقلم.

اهتم المسلمون بالتعليم، بدءاً بالقراءة والكتابة، متبعين خطى رسول الله ﷺ فى تعامله مع أسرى غزوة بدر، حيث حرر كل أسير علم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، فكانت هذه الظاهرة هى الانطلاقة الأولى على سلم الحضارة، وظهر ذلك واضحاً فى البلاد التى فتحها المسلمون، حيث انتشرت المدارس منذ القرن العاشر الميلادى فى جميع مناطق العالم الإسلامى، من أسبانيا عبر شمال إفريقيا حتى بلاد فارس، والتحق بها الأطفال من سن السابعة، وكانت مواد التعليم فيها: القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، ثم يختار الطالب بعد ذلك مواد أخرى، مثل: تحسين الخطوط، والعلوم الدينية، والحساب، والشعر،

ثم أنشئت فيما بعد مدارس لإعداد الدارسين، لتولى مناصب مختلفة في أنحاء الدولة، فكان مستواها عالياً.

واختير للتدريس بما علماء مشهورون، وكانت المدرسة النظامية التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك في بغداد عام ١٠٦٥م نموذجاً يحتذى في كل ما أنشئ بعدها من مدارس، سواء في إعداد سكن خاص للدارسين، أو في المواد التي كانوا يدرسونها، وهي: العلوم الدينية، وعلوم اللغة العربية، والفقه، والتاريخ، والطبيعة من زاوية اتصالها بالدين. انتشرت المدارس المماثلة لهذه المدرسة في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

والجدير بالذكر أن المدارس العليا التي أنشئت في قرطبة، و" سيفيلا "، و" توليدو"... بأسبانيا أمدت الحياة الثقافية الأوربية بروافد حملت معها عناصر الخصوبة، وبدأ هذا بترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية، فقد أنشئ لهذا الغرض مدرسة للترجمة في " توليدو " في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، فضمت مكتبتها العديد من المراجع العربية التي أعدت للترجمة إلى اللاتينية، وكانت اللغة العربية هي لغة للثقفين في ذلك العصر. ^{١٥٣}

لم يقتصر المسلمون في مدارسهم على تدريس العلوم النظرية، بل انفتحوا على كل الثقافات التي سبقتهم في مجال الحضارة، ينقلون منها ويضيفون إليها حتى شيدوا حضارة عالمية فاقت كل الحضارات التي سبقتها، وذلك لأنها قامت على أساس مادي وروحي - على عكس كثير من الحضارات الإنسانية التي أهملت الجانب الروحي -، فالأخلاق والترعة العلمية ركيزتان متلازمتان في بناء الحضارة الإسلامية، انطلاقاً من توجيه القرآن الكريم إلى العلم والابتكار مع

الالتزام بالإيمان والأخلاق، فلم يقتصر ابتكار علماء المسلمين على مجال العلوم الدينية، بل أبدعوا كثيراً في مجال العلوم التجريبية فهم أول من ابتكر الأسلوب التجريبي في تناولهم للمعطيات العلمية والكونية من حولهم، وهو ما أدى إلى تأسيس قواعد المنهج العلمي التجريبي الذي مازال العلم المعاصر يسير على هديه. ومن العلماء المسلمين الذين كان لهم باع طويل في هذا المجال: الحسن بن الهيثم، وابن النفيس، والخوارزمي، وجابر بن حيان، وغيرهم كثير. ومن أمثلة ما تقدموا فيه من العلوم:

الجراحة: فقد تقدم المسلمون تقدماً كبيراً في مجال الجراحة، فمارسوا جراحة العظام والسرطان وما تبع ذلك من استحداث مواد وطرق جديدة لخياطة الجروح وتعقيمها في التخدير أثناء العمليات الجراحية، وأعظم جراح مسلم أنجبته القرون الوسطى هو الطبيب الزهراوي الذي حقق الكثير من الإنجازات الطبية في هذا المجال، ويعتبر مؤسس المنهجية التي قام عليها هذا النوع المهم من الطب.

الفلك: ارتبط الفلك في حياة المسلمين بكثير من شعائر دينهم، حيث وعت الأمة الإسلامية على اهتمام قرآني غير مسبوق في الكتب السماوية الأخرى فيما يتعلق بالفلك والكون المحيط بالإنسان بكل معطياته. ومن الإنجازات الإسلامية بناء المراصد التي كانت مبنوثة في العالم الإسلامي من أقصاه شرقاً إلى أقصاه غرباً. ويلاحظ أن المسلمين حرصوا على إقامة مراصدهم في أماكن مرتفعة، لأنها أنسب وأكثر دقة في رصد الكواكب، ولأنهم بذلك يرتفعون على أي بناء يحجب السماء عنهم، كما يلاحظ ضخامة أجهزتها، لأنها في رأيهم تعطيهم نتائج دقيقة.

الجغرافيا: توصل المسلمون في هذا المجال إلى تحديد دقيق لدرجات الطول

ودوائر العرض، مكنتهم من ضبط تحديد عرض الأماكن عن طريق قياس ارتفاع النجم القطبي أو الشمس. وقد ظهر في المسيرة العلمية للجغرافيا الإسلامية أذاذ من العلماء الموسوعين الذين لم يقتصر جهدهم على علم دون آخر، فكان للجغرافيا من علمهم نصيب، ومن هنا نرى إسهام المسعودي كمؤرخ في الجغرافيا، وكذلك نرى العالم البيروني كعالم طبيعيات يسهم في مجال الجغرافيا، وكذلك الكندي من ضمن إسهاماته الجغرافية الفلكية قوله بأن سطح البحر كروي كاليابسة، أما الإصطخري، فهو أول عالم جغرافي ذو منهجية واضحة المعالم، فخلف لنا كتابه: " المسالك والممالك " ذكر فيه أقاليم بلاد الإسلام وغيرها، وكان فيه دقيقاً، لم يعتمد على النقل من غيره، وقد أحصى فيه كثيراً من المدن والأنهار والجبال..و.. إلخ.

الكيمياء: ولا ننسى أن نشير هنا إلى جابر بن حيان باعتباره مؤسس الكيمياء المنهجية في الحضارة الإسلامية، وقد اعتمد المسلمون على التجربة وحدها للوصول إلى الحقيقة العلمية، ولذا اهتموا كثيراً بإنشاء المختبرات لإجراء تجاربهم، وكان من هذه المختبرات مختبر لجابر بن حيان، وآخر للرازي. أما بالنسبة للأجهزة الكيميائية التي توصلوا إليها، فمنها جهاز التقطير، كما عرف المسلمون ميزان الماء...

الفيزياء: خاض المسلمون غمار هذا العلم ببراعة وذكاء منقطعي النظر، حتى لكأنهم أنشئوا علماً جديداً، فمن إنجازاتهم واكتشافاتهم أنهم بحثوا في الوزن النوعي للمعادن والسوائل، أما المعادن فكان أول من تطرق إلى وزنها هو: سند بن علي، الذي عاش في خلافة المأمون. كما أن المسلمين استطاعوا قياس الوزن النوعي للسوائل، والذي يعد حتى في العصر الحديث بوسائله المتطورة أمراً عسيراً.

برع المسلمون في أنواع كثيرة من الصناعات كالنسيج، والسجاد، والسيراميك والخزف والزجاج، وفن العمارة وغيرها مما لا يتسع المقام لذكرها.^{١٥٤}

أردت بسرد هذه الأمثلة أن أبين كذب ما تدعيه آلات الإعلام في العالم الغربي من أن المسلمين أعداء الحضارة، فهم يريدون تدمير الحضارة الغربية، لأن دينهم لا يعترف بها. وهذا هراء! لأن أول آية نزلت من القرآن الكريم تشير إلى أن أساس بناء الحضارات هو القلم، وتسجيل الابتكارات والاختراعات والإبداعات.... وغير ذلك من أدواتها، حتى يبنى اللاحقون على ما سطره السابقون، فالمسلمون لا يعادون أى حضارة؛ فقد ثبت أنهم بناء حضارة بكل أدواتها، وليسوا أعداء لأى إنتاج بشري، فقد أخذوا من الحضارات القلم في اليونان والهند وفارس والروم.... وبنوا عليها، فإذا كان في الحضارة الحديثة ما يفيد الإنسانية فالمسلمون أسرع الناس إلى قبولها؛ فـ "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها".

ويكفى المسلمين فخراً أن أول آية نزلت من القرآن الكريم أمرهم بأن يأخذوا بأسباب الحضارة وازدهارها، ألا وهى: القراءة والكتابة، ففي هذه الآية إعجاز، ليس إعجازاً لغوياً فحسب، ولكنه إعجاز على مستوى الفكر الإنساني، يفهمه كل إنسان، حتى ولو لم يعرف كلمة عربية واحدة، فلو كان القرآن الكريم من عند محمد الأمي، ما اهتدى هذا الأمي إلى هذا الجانب الحضاري الذي لم يدركه أحد إلا في العصر الحديث، حتى لم يدركه في العصر الحديث إلا الراسخون في العلم من المفكرين والباحثين في الفكر الإنساني، فهو بهذا دليل

واضح وحجة دامغة على أنه وحى من الله الذى يحيط بكل شيء علماً، فيعلم
ما سيظهر فى المجتمعات الإنسانية فى جميع مجالات الحياة البشرية.

obeyikanda.com

معجزة القرآن الكريم

متجددة عبر الزمن

obeikandi.com

علمها عند الله

يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤]

استأثر الله بخمسة أمور، لم يعطها لأحد، وهي:

- علم الساعة،
- إنزال الغيث،
- علم ما في الأرحام،
- علم ما سيحدث غداً،
- مكان طلوع الروح.

ليس علم الله قاصراً على هذه الخمسة، بل يعلم - كما قال الرازي - "الجوهر الفرد الذي كان في كتيب رمل في زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة، ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر، وإنما الحق فيه أن نقول: لما قال الله:

﴿ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾

وذكر أنه كائن بقوله: ﴿ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ كان قائلاً قال: فمتى يكون هذا

اليوم؟ فأجيب: بأن هذا العلم مما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن... ثم ذكر دليلين على البعث: أحدهما: إحياء الأرض بعد موتها كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [٤٩] فَاَنْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ

اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْتَى ﴿٥٠﴾ [الروم: ٤٩ -

٥٠] وقال تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم: ١٩]، وقال ههنا: يا أيها السائل! إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة، والله قادر عليها كما هو قادر على إحياء الأرض، حيث قال: وهو الذي يتزل الغيث، وقال: ويحيى الأرض. وثانيها: الخلق ابتداء كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠] إلى غير ذلك، فقال ههنا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴿٢١﴾﴾ إشارة إلى أن الساعة، وإن كنت لا تعلمها، ولكنها كائنة والله قادر عليها، وكما هو قادر على الخلق في الأرحام، كذلك يقدر على الخلق من الرخام، ثم قال لذلك الطالب علمه: يا أيها السائل! إنك تسأل عن الساعة أين مرساها، فلك أشياء أهم منها لا تعلمها، فإنك لا تعلم معاشك ومعادك، ولا تعلم ماذا تكسب غدا..... " ١٥٥

وقد اتفق العلماء في تفسير هذه الآية، وبينوا المقصود من هذه المعنيات الخمس، فلم ينفرد أحد منهم برأى مختلف، وخاصة في بيان معنى إنزال الغيث، وعلم ما في الأرحام، على اختلاف بينهم في مناهج تفسيرهم، يقول ابن كثير: " هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب.... وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن يشاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً، علم به الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه، وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب

غداً في دنياها وأخرها (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) في بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك... وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب.

قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين بن واقد، حدثني عبد الله بن بريدة، سمعت أبي بريدة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)، هذا حديث صحيح الإسناد..... كذلك ذكر في هذا المقام عدة أحاديث رواها كل من: ابن عمر، وابن مسعود، وأبو هريرة، وابن عباس وغيرهم. وكلهم أجمعوا على أن الله هو الذى يتزل الغيث، ويعلم ما فى الأرحام...^{١٥٦}

وقد وجه أحد الجمهور سؤالاً إلى المحاضر فى إحدى ندوات مسجد النور بالقاهرة هذا السؤال: كيف نرد على من يعترض على الآية بأن الإنسان استطاع أن يتزل المطر عن طريق استخدام بعض الكيماويات، وعلم ما فى الأرحام باستخدام ما يطلق عليه " سونار Sunar "؟^{١٥٧}

(١٥٦) ابن كثير ج ٥ ص ١٩٩ - ٤٠٣ .

(١٥٧) أصبح العلم الحديث قادراً على معرفة جنس الجنين قبل الولادة بعدة أشهر بعدة طرق، من بينها السونار، وهناك طرق أخرى، منها: أخذ عينة من دم الأم الذى يحتوى أيضاً على بعض خلايا دم الجنين، ومن ثم تحليل الـ DNA لهذه الخلايا ومعرفة نوع جنس الجنين، بل الأكثر من هذا: يمكن للإنسان اليوم بفضل التقدم الهائل فى علوم الأحياء وعلم الجينات تحديد جنس المولود قبل الإخصاب (Sex Selection) ويمكن تحقيق ذلك بعدة طرق، بل إن قدماء المصريين توصلوا لطريقة، يمكن بواسطتها معرفة نوع الجنين، فلمعرفة ما إذا كانت المرأة حاملاً أو غير حامل، كانوا يبللون بعض حبات من القمح والشعير بيول المرأة المقصودة، فإذا حدث إنبات لكلا النوعين من الحبوب تكون المرأة حاملاً، وإذا نبتت حبات الشعير فقط، فذلك يدل على أن الجنين ذكر، أما إذا نبتت حبات القمح فقط يكون الجنين أنثى،

فرد عليه المحاضر بما ذهب إليه المفسرون بأن الله يعلم ما سيكون عليه الجنين من شقاء وسعادة..... فما كان من السائل إلا أن أبدى عدم اقتناعه بهذا الجواب، الأمر الذي اضطرني -كمدير للندوة - إلى التعقيب على هذه الإجابة، فقلت: في الآية خمس مُعَيَّنَات، ثلاث منها بأسلوب القصر، وهي: علم الساعة، وما الذي سيكسبه المرء غداً، وفي أي أرض سيموت، وهذه الثلاثة لا يمكن لأحد أن يعلمها، في أي زمن مهما تقدم العلم و تطورت أساليب الاكتشافات. أما الاثنتان الأخريان، وهما إنزال المطر، وعلم ما في الأرحام، فقد صيغتا بأسلوب الخبر، وهو لا ينفي علم الآخرين بها، لا في القلم ولا في الحديث، فمثلاً إذا قلت: عندي الكتاب، أي ليس عند أحد سواك، أما إذا قلت: الكتاب عندي، فيحتمل أن يكون عند أحد غيري، وهذا ما يُفهم من قوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا الْغَيْثَ) فيحتمل أن يترله آخر، (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) فكذلك علم الآخر به محتمل.

وهذا من الأسرار الكامنة في الأسلوب القرآني، التي لا تنضب عبر القرون والزمان، وهو إعجاز يفهمه كل الناس؛ العربي وغير العربي، فهي تمد من يبحث بما يعرضه على العالم من صلاحية القرآن الكريم لكل معطيات العصور، مهما اختلفت أساليبها، وتعددت مناهجها، وتنوعت طرق التفكير فيها، وتكاثرت صورها وأنواعها.

والغريب أن هذه الطريقة القديمة جداً أثبت بعض العلماء الألمان فيما بعد صحتها إلى حد كبير، بعد أن وجدوا أن هرمون " الإستروجين " الذي يخرج في بول الحامل، له القدرة على إحداث نمو لبعض بذور النباتات، ووجدوا أن النمو الأسرع لحبات القمح عن نحو حبات الشعير ينشأ بولادة الإناث، وأن النمو المتأخر أو البطيء لحبات القمح ينشأ بولادة الذكر، وهو ما توصل إليه قدماء المصريين.